التفاوت في شعر الجواهري

المدرس الدكتور

سعد جبار مشتت

جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

التفاوت في شعر الجواهري

المدرس الدكتور

سعد جبار مشتت

جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على نبيه الامين (محمد) وعلى اله وصحبه أجمعين،صلاة تهدأ لها النفوس وتطمئن بها القلوب،وتبرأ بها الأبدان،وبعد.....

لقد اهتم الدارسون للشعر العراقي على مدى قرن من الزمان بشاعر العرب الأكبر (محمد مهدي الجواهري)، فهو علامة بارزة في سماء القصيدة العربية ،ومما ساعد على ذلك الاهتمام الأحداث السياسية التي واكبتها الشاعر وهي احداث غيرت الساحة السياسية العراقية غير مرة. وكانت له وقفات من التأيد والرفض وبعض المواقف الضبابية التي تتسم بعدم الأنتظام في الانفعالات والعمل على حد سواء0

ان الدارس لشعر الجواهري وحياته السياسية سيخرج بالتأكيد بمواقف تتناقض فيما بينها ،فهو المؤيد الرافض والمحب المتهاتك والحزين الخاشع والمستسلم الثائر والمادح القادح000فضلا عن حياته التي اتسمت بعدم الاستقرار0

ان هذا المزيج المتباين من الافكار والانفعالات أدى الى نتاج شعري يتصف بالتناقض ايضا،و حسب المواقف ومع ذلك فان هذا النتاج الشعري لم يخضع كله الى الدرس والتحليل والنقد وانما كانت نماذجه العالية ميدانا لهذا الاهتمام فكانت روائعه (آمنت بالحسين،دجلة الخير،أرح ركابك،أبو العلاء المعري، فتى الفتيان ،ابن الفراتين....) ما تسابق اليه الناس متناسين انه نظم اكثر من ثلاث مائه وسبع وثمانين قصيدة فاين القسم الاكبر؟ان الدراسة التي انوي ان اقوم بها تتركز على القسم الاخر من الديوان وهي القصائد التي بقيت بعيدا عن ايدي الدارسين ليس لشيء سوى انها اقل ابداعا من غيرها وهذا ماسميته (التفاوت) وعنيت به الابداع في موضع ثم الهبوط في الموضع الاخر ، فوقفت عليه في الاسلوب واللغة والموضوع والايقاع وغيرها من الامور التي وجدتها بعيدة عن اقلام الدرسين0

لذلك قسمت الدراسة على مبحثين مسبوقين بمقدمة وتمهيد درست فيه حياة الجواهري بما يتناسب وموضوع البحث فأخذت التناقض مع النفس والمجتمع مما يهيء الارضية لبحث للتفاوت في الشعره0

فذكرت في المبحث الاول التفاوت الفني بين قصائده متلمسا الضعف والنثرية والتطويل وبعض الاساليب اللغوية والالفاظ و الاخطاء العروضية فضلا عن الاسباب التي تقف وراء ذلك مامكنني اليها سبيلا،ودرست في المبحث الثاني التفاوت الموضوعي بين الفعل والقول فأخذت الموقف من المديح ،ومن الغزل (المرأة) ،والموقف من المجتمع، و بعض القصائد الاجتماعية والوصفية فضلا عن التهكم والسخرية وغيرها املا ان اوفق في عملي والله من وراء القصد0

التمهيد

ان ابرز مايلاحظ على الجواهري هو التمرد وعدم الالتزام بالمقيدات ،مما يعد حالة دفاعية من قبل الشاعر تجاه ما يدور في مجتمعه ،فكانت تلك محاولة للخروج من القيد بما يتنافى والقواعد التي يستند اليها في محيطه ،وينشط هذا اللون من ردود الافعال ليس عند الجواهري وحده وانما عند الناس جميعا لذلك آثرت ان ادخـل الى التفاوت في شعر الجواهري من خلال هذا الباب الذي ظهر جليا في نتاجه الادبي ،فقد تشبع بالثقافة الدينية في حياته الاولى التي لاتسمح له ببعض الاشياء فانفرط من قيدها مرتين ،الاولى في تصرفاته واعماله والاخرى في نتاجه الادبي لذلك سنقف على الاولى في هذا التمهيد ونترك الاخرى الى البحث الذي يقوم بتفصيل ذلك 0لقد كانت المواقف التي تدل على عدم الرضا من كل شيء حاضرة في حياة الجواهري ،فقد ساند كل الحركات الثورية التي قامت في العراق على وجه الخصوص ايا كانت تلك الحركات ،فقد اصدر جريدة الانقلاب اثر انقلاب بكر صدقي عام(1936م) ثم غير اسم الجريدة الى الرأي العام بعد سقوط حكومة الانقلاب .

ولما قامت حركة مايس عام (1941م) ايدها وبعد فشلها غادر الى ايران، وفي عام (1958م) عاد الى بغداد ليحيي هذه الثورة بقصيدته:

ارح ركابك من اين ومن عثر كفاك جيلان محمولا على خطر(1)

الذي القاها في حفل اقامته له وزارة الثقافة والاعلام وبعدها خصصت له الحكومة راتبا تقاعديا قدره (150)دينار0ثم يغادر العراق مرة اخرى بسبب ما تعرض له من المضايقات خلالها،ليعود على اثر ثورة تموز عام(1968م) ليصدح بقصيدته:

سدد خطاي لكي اقول فاحسنا فلقد اتيت بما يجل عن الثنا (2)

واستانف اصدار جريدته الراي العام ووقفها على تأيد الثورة ومنجزاتها،واشتراكه بعدد من البعثات الادبية ممثلا للعراق في تلك المحافل الدولية 0(3)وبعد صدور بيان 11/آذار/1970 م حياه برائعته (يوم الشمال) أو(يوم السلام)(3)

طيف تحدر من وراء حجاب غضر الترائب مثقل الاهداب

في مئة وثمانية عشر بيتا،فضلا عن دخوله عضوا في المجلس النيابي عام (1947م) وغيرها من الاحداث الاخرى التي تكفل بها التاريخ ،فهذا كله يفتح لنا الباب واسعا لدراسة ظاهرة التفاوت في شعره اعتمادا على التناقض في مواقفه باعتبارها اساسا لذلك التفاوت، ان الصورة التي يستند عليها الجواهري ظاهرة من خلال ما اشار اليه من الشخصيات كالصعاليك والمتشردين وشعراء الغزل الفاحش الذين يظهرون بين الحين والاخر في شعره فهم دليل واضح على محاولة مجاراتهم بطريقة او باخرى0لهذا كان التقليد واضحا من خلال نماذجه المتمردة لانه يعتبر ان تمرد بشار بن برد والحلاج يمثل قمة الشاعر العربي عبر الزمن0

التفاوت لغة واصطلاحا

استعملت المعجمات اللغوية التفاوت للخروج من الشيء الى الشيء الاخراو التقصير فقالوا فَاتَهُ الشيءُ: أَعْوَزَهُ. "وتَفَاوَتَ الشَّيئانِ"، أَي "تَبَاعَدَ ما بَيْنَهُمَا، تَفَاوُتاً، و المَعْنَى: مِن الاختلاف وفاتَني الأَمرُ فَوْتاً وفَواتاً: ذهَب عني. وفاتَه الشيءُ، وأَفاتَه إِياه غيره؛ وقول أَبي ذؤَيب:

إِذا أَرَنَّ عليها طارِداً، نَزِقَتْ، والفَوْتُ، إِن فاتَ، هادي الصَّدْرِ والكَتَدُ

يقول: إِن فاتَتْه، لم تَفُتْه إِلا بقَدْرِ صَدْرها ومَنكِبها، فالفَوْتُ في معنى الفائت. وليس عندهفَوْتٌ ولا فَواتٌ؛وتَفَوَّتَ الشيءُ، وتَفاوَتَ تَفاوُتاً، وتَفاوَتاً، وتَفاوت وفي التنزيل العزيز: ما تَرَى في خَلْقِ الرحمن من تَفاوُتٍ؛ المعنى: ما تَرى في خَلْقِه تعالى السماءَ اختِلافاً،ولا اضْطراباً.وتَفاوَتَ الشيئان أَي تَباعد ما بينهما تَفاوُتاً، بضم الواو؛

مِن تَفَوُّتٍ: مِن عَيْبٍ، و اما الاختلاف فكله مذموم ولهذا نفاه الله تعالى عن فعله فقال " ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت " ومن الاختلاف ما ليس بمذموم ألا ترى قوله تعالى " وله إختلاف الليل والنهار " فهذا الضرب من الاختلاف يكون على سنن واحدة وهو دال على علم فاعله، والتفاوت هو الاختلاف الواقع على غير سنن وهو دال على جهل فاعله

المبحث الأول:التفاوت الفني

لقد تميز الجواهري عن غيره من الشعراء بتسجيل كل ما يشاهده من المواقف والاحداث في قصائد تقصر او تطول فأوقعه ذلك في التكرارسواء بالافكار او الألفاظ(4) وقد ينحدر الى النثرية في بعض الاحيان ومن الدارسين من يؤكد عدم انحداره الى (النثرية لكونه مشبوب العاطفة وصاحب انفعال حاد)(5) وعندما نقرأ قصيدته (على كرند) نجدها خالية من الروح الشعرية وكأننا امام قطعة نثرية مقفاة في وصف مصيف كرند الذي استوقفه بمناظره الخلابة فلم يبدع وانما وصف لنا ما شاهده بلغة بسيطة تخلو من الابداع فقال في مطلعها:

خليلي احسن ما شاقني بفارس هذا الجمال الطبيعي
الى الان تجري متون الجبال علينا بمثل مذاب الدموع(6)

فالمطلع لايدل على قوة صاحبه وانما الفاظ تدل على البساطة الى حد ما (فالجمال الطبيعي) لفظ لايدل على الشعرية في هذا الموضع مما اوقع القصيدة في استعمال الفاظ تقترب من النثر في الابيات الاخرى وقد يكون ذلك بدافع الوزن الذي لايحتاج الى الفخامة والجهد0

وكذلك قصيدته (حببت الناس) حاملة التكرار الممل الذي ذهب بالقصيدة الى السأم بدلا من التركيز على ما اراد الشاعر فقد كرر (حببت الناس والاجناس) خمس عشرة مرة في عشرة ابيات فتصور(7) ولعل هذا وغيره بسبب من مذهبه في كتابة القصيدة الذي لم نعهده عند الشعراء الاخرين ،وهذه الطريقة يتبعها مع ما يكلف به من القصائد فاذا(يكلف بكتابة القصيدة يسرع بجمع الكلمات التي تبنى عليها القافية وهنالك

نموذج لهذا البناء الذي يجمع فيه كلمات اللغة التي وفق القافية،صاحبه،غاضبه، 000 فجمع مئة وست عشرة كلمة ثم بدأ بوضع هذه الكلمات في ختام الابيات وما يتسق والمعنى ويبدأ بشطب ما يستعمله حتى ينتهي الى اخر الكلمات)(8) فجائت قصيدته (الفداء والدم) بمئة وثلاثين بيتا بتكرار بعض الالفاظ ومطلعها:

جل الفداء وجل الخلد صاحبه ضاق الفضاء وما ضاقت مذاهبه(9)

ويذكرنا بشعراء القرن السادس الهجري الذين عمدوا الى تطويل المدائح فكانت صفة لتلك العصور ومقياس للشاعرية وما (مقصورته) (10)الا دليل على مانقول فقد بلغت مئتان وسبع وثلاثين بيتا من غير ما ضاع منها في نهر دجلة والذي يقدر بمئة وخمسين بيتا وذلك بسبب عدم التزامها بحرف محدد لان الالف المطلقة تركب على كل الحروف العربية فاسترسل بها وكانها من الشعر التعليمي الذي اشتهر في العصور المتاخرة وهي غير قليلة في ديوانه وليس هذا وحده وانما هنلك استعمالات لغوية اشتهرت بها تلك العصور كالاغراق بالفنون البديعية واجراء الفعل مجرى الاسم كقوله ينادي الفعل :

فيا جبر الله ذاك الكسير ويا خسر الصفقة الرابح (11)

ومن يقرأ قصيدته (بين النجف وامريكا) الذي عارض بها قصيدة ايليا ابي ماضي :

احب معانقة النرجس لعينيك يا ابنة كولومبس

فلم ياتي بجديد وانما هي تقليد ركيك في الفاظ خالية من العاطفة محشوة حشوا لاتتوافق لا مع القافية كما نجد في قوله:

أأمريك يا بنت كولومبس لحبك وقع على الانفس
حننا ولو كان في وسعنا سعينا اليك على الارؤس
هواجس تدني اليك المنى ولولا المنى قط لم اهمس
اذا انس الصب ذكر الحبيب ففي غير ذكرك لم انس
هواجس تدني الك المنى ولولا المنى قط لم اهجس (12)

و هكذايسترسل على هذا المنوال حتى تضيع المعاني والالفاظ جريا وراء القافية وهذا عينه ما وقع في قصيدة (النقمة) فلم تسعفه القافية فوقع في حيرة من اختيار غير موفق لاكثرها كقوله:

ياللرجال تلاقفته يد الاعاجم والنبيط
سقط النشيط على افتقار الخاملين الى النشيط
ولقد بكيت على حبوطك يابلادي لاحبوطي
يانائما ما نبهته الحادثات من الغطيط
ياشعر ثر ان الشعور مهدد يانفس شيطي (13)

فكأننا امام جملة من الطلاسم لانعرف ولانسمع منها الا الطقطقة ،اما قوله (شيطي) فلم يعرفها الا العاميون من الاعراب لانهم يستعملونها للطبخ عندما تغلبهم عليه النار فضلا عن المعارضات التي تقل شانا عن الاصل(14) 0

وبعد هذا نراه يتسائل (فهل يصدق القارىء اني كنت اقف على ما تبقى من دقائق الاحجار المتناثرة على اطراف مسجد الكوفة وانا اقلبها الواحدة بعد الاخرى وكاني بذالك اريد ان اشم رائحة عطرها متخيلا انها كانت وصلة من اوصال حي كندة بل ومن اوصال الدارجين عليها وكلهم يتمثلون في شخص العبقري منهم ابي محسد اجل هذا ماكان مني وعلى مصداقيته) (15)

ثم يتشبه كثيرا بالقدماء ويتفاخر بالانتساب اليهم غير مرة كقوله:

بعلقمة الفحل ازجي اليمين اني الذ بمر الجنى
وبالشنفرى ان عينـــــــي لا تلذان في النوم طعم الكرى
وبالمتنبي ان الـــــــبلاء اذا جد يعلم اني الفتى (16)

لقد تمسك بهذه النماذج وقلدها في كل شيء لكنه لم برق الى تلك النماذج العالية وانما رفعه النقاد الى هذه الدرجة لهذا كانوا يزعمون (ان الجواهري يتفق مع معشوقه الشعري البحتري في انهما لم يخلقا لسوى الشعر ويفترقان في هذه ايضا فالبحتري وضيع لاتنهض نفسه الا الى الدينار والدرهم الذين تجود بهما الدولة عليه ،اما الجواهري فيرى انه بالشعر وحده هو سيد القوم،ويتفق مع المتنبي ويختلف في هذا فالمتنبي يريد بالشعر الوصول الى اغراضه في الملك اما الجواهري فيرى انه في الشعر وحده ما يغنيه فيه ،هو ملك على الساسة قبل المسوس) (17)وهو ليس كذالك فقد خضع وتذلل واذلل الشعب ارضاء للملوك كقوله يمدح الملك عبد الاله:

امواج دجلة والفرات تدفقا عذبا فراتا عاد بعدك مالحا
ايامنا بك كلهن سوانح ومتى تشا - حوشيت - كن بوارحا
لولاك ماكان العراق واهله الا قطيعا في فلاة سارحا (18)

لقد سخر من الانسان العراقي كثيرا فلم يجد ما يقدمه الى ممدوحه سوى ما وصف الشعب به ليشد على يد ممدوحه حتى صفق له الحضور ارضاء للملك 0 ونرجع قليلا حتى نجد شعر القرن الخامس الهجري (يزخر بمعاني الخضوع والذله) (19) .

المبحث الثاني:التفاوت الموضوعي

اما على الصعيد الموضوعي فان التنشئة الاولى كانت سببا في توجيه النتاج الادبي كونه معاكسا لما يسير عليه نمط الشاعر الثقافي والاجتماعي ،فقد رفض جانبا من تنشئته الاولى وخصوصا ما تلقاه في دراسته الدينيه ،فتحول من الاتجاه الفقهي الى الاتجاه الادبي والشعري وتبع ذالك تغير في زيه فخلع الجبة والعمامة وغادر النجف ليفتح بذالك لنفسه طريقا في كتابة الادب متحررا من القيود 0

ان هذا الخرق لقواعد التنشئة الدينية كان سببا رئيسا في التفاوت الذي وقع به الجواهري عندما تمرد على النفس والمجتمع وسماه الشاعر (التمرد على الواقع وحب الحياة)0(20)ولكنه لم ينصفنا في الفعل وانصفنا في القول فهو يرى(بعد الف عام على بشار او ما يزيد مازلنا نمسك عن الكلام المباح ،ماهذه بدعوة للاسفاف ،فبين ان نصرح او نسف مابين السماء والارض من مسافات، اقول تحدثت في شعري عن مجالس ادب

تكاد تكون مكشوفة فيها المخلوقات من عالم الغواني وعالم العاشقات وفي كل الاحوال لم اخرج عن حدود الالتزام لهذا الكائن البديع الذي اسمه (المرأة)0 وكنت ادفع بهذا ثمن جمال الانوثة ... وادفع ايضا ثمن الرجولة المتقدة) (21)ويذكر امثلة ليس فيها اسفاف لكنه نسي اني ساتصفح الديوان ،ففيه مايدعو الى الترحم على اولئك الشعراء القدماء واسفافهم ،فاين القدماء من هذا الوصف الجسدي الفاضح الذي لم نعرفه الا عند المتهاتكين من الشعراء كقوله:

وتلاقى الصدران واصطكت الافخاذ حتى لم يبق الا لماسة
وعلى اسم الشيطان دست عضوضا نائي الجنبتين حلو المداسة
لبدا تستهل اللبانة منه لا بحزن ضرس ولا ذي دهاسة [22]

فقد صرح بكل ماتانف منه الاذان ويستمر في وصفه لما يستقبح ذكره 0لقد انهار امام الرغبة الجانحة ووقع في كل محرم0

ثم يدخل حانة اخرى ويصف لنا الراقصة العريانة في قصيدته (عريانة) وهي مغامرة طويلة منها :

ليت شعري مالسر في ان بدت للعين جهرا اعضاؤك الحسنانة
واختفى عضوك الذي مازه الله على كل مالديك وزانه
الذي نال حظوة حرم الانسان منها وخصت الانسانة
وتمنى على كل الطبيعة شكلا هو من خير مايكون فكانه
ومحلا خصبا حل بواد انبت الله حوله ريحانه (23)

ثم يصف اخرى في قصيدته (بديعة) فيقول:

هزي لهم ردفا اذا رغبوا ودعي لنا ماجاور الردفا
ملء العيون هما وخيرهما مايملأ العينين والكفا
وكلاهما حسن وخيرهما ماخف محمله وما شفا (24)

فذكر الشاعر المرأة بالحسن والاخبار عن تصرف هواها به مقبول عند شعراء الغزل ولكن الصبوة والوصف الجسدي ليس من الغزل بشيء وانما هو التهتك والقصف الذي نفاه الشاعر عن نفسه ليبرئها من اليلة التي قضاها مع هذه المرأة وافصح عنه بقصيدته (ليلة معها) فقال:

لااكذبنك انني بشر جم المساوي اثم اشر
شفتاي مطبقتان سيدتي والخبر في العينين والخبر
انا كلينا عارفان بما حوت الثياب وضمت الازر
وبنا سواء لاحياء بنا الجذوة الخرساء تستعر (11)
فعلام تجتهدين مرغمة ان تستري ماليس ينستر
وسويعة لااستطيع لها وصفا فلا امن ولا حذر
يدها بناصيتي ومحزمها بيدي فمنتصر ومندحر
امسكت نهديها واحسبني اشفقت ان تتدحرج الاكر
اني وردت الحوض ممتلئا شهدا يفوح اريجه العطر

ولقد صدرت وليس بي ضما الله ذاك الورد والصدر
اني لاسف ان يجور على خديك خد كله شعر
هذا الحرير الغض ملمسه حيف يخدش جنبه الوبر (25)

وبعد هذه المغامرات يعترف بذنبه :

وانا في جهنم مع اش ياخ غواة بغيهم غمروني (26)

ومع هذا كله وغيره نجد من يتلمس له عذرا في (ان بيئته لم تكن تسمح له – وهو شاب – ان يعيش في تجربة حب فينصرف في تصويرها كما يفعل المبتدئون من الشعراء) (27) وان الشعراء عندما يكتبون تجاربهم (لايتغزلون بالمرأة وانما بالكلمات) (28) فماذا يقول عن مغامرته مع هذا الغلام المسكين:

من مبلغ عني رسالة موجد كلف الى الرشأ الاغن محمد
خادعتني باللحظ منك فصدتني ولقد يعز على سواك تصيدي(29)

وهي مقطوعة بستة ابيات بين فها ما فعله به صاحب اللحظ الذي اسره وبراه بري الحديد (12)بالمبرد فماذا بعد ذالك؟ لقد قطع هذه المغامرة على غير عادته في المغامرات الاخرى لان الموضوع لايحتمل كما يحتمل الغزل0

اذن لابد من القول ان هذا النوع من الغزل يرتبط بمخزون الشاعر من الادب العباسي اذ كان ابو نواس صاحب قصب السبق فيه وبلغ الذروة في فنه فقلده شاعرنا ليثبت انه لايقل شانا عن الاخرين في وصف المغامرات العاطفية ثم تسترسل شاعيتهفيقع فيما نفاه عن نفسه فتناقض بين القول والفعل ووقع في التفاوت الذي نتحدث عنه0

هوامشالبحث

(1) الديوان /9
(2) الديوان/888
(3) الديوان/927
(4) ظ الديوان/773 مع 893
(5) لغة الشعر عند الجواهري د علي ناصر غالب /15
(6) الديوان/128
(7) الديوان/857
(8) الجواهري دراسة ووثائق محمد حسين الاعرجي /377
(9) الديوان /879
(10) الديوان /476
(11) الديوان /111
(12) الديوان/78
(13) الديوان /100
(14) ظ الديوان/94---101 على سبيل المثال
(15) ذكرياتي1/37
(16) الديوان/477
(17) البنية الايقاعية في شعر الجواهري/17
(18) الديوان/187

(19) الادب في عصر صلاح الدين/193
(20) الجواهري جدل الحياة والشعر/194
(21) ذكرياتي 2/49-50
(22) الجواهري في العيون من شعره/86
(23) الديوان/278
(24) الديوان/309
(25) الديوان /319
(26) الديوان/215
(27) الجواهري دراسة ووثائق/20
(28) الجواهري دراسة ووثائق/19
(29) الديوان/1069

المصادر والمراجع

1- أثر التراث في الشعر العراقي الحديث ،علي حداد ،دار الشوؤن الثقافية العامة ،ط1 1986، دار الحرية للطباعة بغداد
2- البنية الايقاعية في شعر الجواهري،د عبد نور داود رسالة دكتوراه كلية الاداب جامعة الكوفه 2010 م
3- التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والابداع في الشعر العربي ،طراد الكبيسي ،وزارة الثقافة والفنون بغداد 1978 الموسوعة الصغيرة
4- الجواهري جدل الحياة والشعر ،عبد الحسين شعبان دار الكنوزالادبية بيروت لبنان ط1 1997 م
5- الجواهري دراسة ووثائق، محمد حسين الاعرجي دار المدى ط1 دمشق 2002
6- الجواهري في العيون من شعره،الجواهري ،دار طلاس ،ط1 ،1986
7- ديوان الجواهري الاعمال الشعرية الكاملة ،دار الحرية للطباعة والنشر بغداد، ط2 2008
8- ذكرياتي ،الجواهري، دار الرافدين ،دمشق، ط1 1991
9- صراع الاصالة والحداثة ،جلال حسين ،مجلة الوحدة الاسلامية س2 ع15 شباط 2003
10 - لغة الشعر عند الجواهري ،د علي ناصر غالب